الرافدين

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

العدد السابع – السنة الثانية 1990

الرافدين

موسوعة فصلية مصورة تعنى بالاثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

الكوفة
Kufa Academy

أكاديمية الكوفة

هولنده

Kufa Academy

الامام علي
وحقوق الانسان

بقلم : الدكتور الحبيب الجنحاني
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ـ
تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

أرى ان الحديث عن سياسة الامام علي رضوان الله عليه ، وعن مواقفه الخالدة في مجال حقوق الانسان لابدّ أن يتنزل ضمن الرؤية الشمولية لحقوق الانسان في الاسلام ، فقد كانت مواقفه معبرة أصدق تعبير عن هذه الرؤية ، مستميتا في الدفاع عنها قولا وعملا الى آخر لحظة في حياته .

ولما تغيرت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الاسلامي ، وأصبح الناس كما وصفهم صديقه الوفي الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري ، رحمه الله قائلاً : «كان الناس ورداً بلا شوك ، فأمسوا شوكاً بلا ورد» ، ازداد تمسكه الشديد بهذه الحقوق ، والذود عنها ، وخصوصا بعد بيعته بالخلافة ، وقد اتضح ذلك من خلال ممارسته اليومية للسلطة ، ومن خلال تربيته للمسلمين ، وغرس مبادىء الاسلام في نفوسهم ، وفي مقدمتها مبادىء حقوق الانسان .

ولما ظهرت محاولات الحزب الاموي لتحويل مؤسسة الخلافة الى ملك عضوض يحرم الناس حقوقهم ، ويسلط عليهم ألوانا من القهر والعسف تفطن الامام علي عليه السلام الى محاولات الانحراف ، والى الخطر الداهم فازداد تمسكه بمبادىء حقوق الانسان والدفاع عنها ، ولا غرابة في ذلك فقد تشبع بروحها من القرآن الكريم ، ومن السيرة النبوية الشريفة ، وهو أعلم الناس بهما دون منازع .

وأود في هذا الصدد إبداء الملاحظات الأساسية التالية :

أولاً : امتزاج مفهوم حقوق الانسان عند الامام علي رضوان الله عليه بحقوق الأمة ، فلا يمكن أن تحترم حقوق الانسان وتصان إلاّ في مجتمع الحق والحرية والعدل الاجتماعي . ومن هنا فان السلطة لم تكن أبداً في نظره غاية في حدّ ذاتها ، ولم يسع اليها في يوم من الايام ، بل كان من أزهد الناس في السلطة ، ولما جاء المسلمون لمبايعته بالخلافة قَبل أن يتولى المسؤولية الأولى في جهاز الدولة الاسلامية الفتية (أي الخلافة) لتكون أداة لمقاومة مظاهر الحيف والانحراف ،

ولارجاع الحقوق الى اصحابها ،دخل عليه صفيه وتلميذه عبد الله بن عباس يوما فوجده يخصف نعله فعجب أبن عباس من أن يخصف أمير المؤمنين نعله بنفسه ، وهو يحكم مناطق شاسعة من العالم القديم ، فقال لابن عباس :

«ما قيمة هذه ؟» (مشيراً الى نعله) قال : «لا قيمة لها» فقال الامام :

«والله لهي أحب اليّ من إمرتكم إلّا ان اقيم حقا أو أدفع باطلاً» .

فالسلطة تعني عنده ـ اذن ـ اقامة الحقوق ، ومقاومة الباطل وأهله .

ثانياً : قد يقول قائل : إن الامام علي كرم الله وجهه قد خاض حروبا طاحنة ، وقاتل طيلة اربعين سنة ، واصاب سيفه مئات الناس فكيف نوفق بين هذا وبين دفاعه عن حقوق الانسان ؟ قد يشتبه الأمر عند البعض ، وأقول إجابة على مثل هذا التساؤل :

أ ـ أن الدفاع عن حقوق الانسان اقتضى بالأمس ، ويقتضي اليوم ايضا مقاومة اهل الظلم والبغي وكل قوى الشر المعادية للانسان ولحقوقه .

ب ـ تجمع الروايات التاريخية على أن الامام لم يقاتل الّا دفاعا عن العدل ليقيم الحق ويقاوم الظلم بشتى مظاهره ، وبخاصة الظلم السياسي والاجتماعي .

ثالثا : إنه من المعروف تاريخيا ان تمسكه بالحق وصرامته في تطبيقه قد جعلت كثيرا من سادة قريش وزعماء العرب يعادونه ، ويلتحقون بصفوف معاوية ، وقد ضاقوا خصوصا بالتسوية في القسمة بينهم وبين العامة وهم الرؤساء ، وقد كان واعيا بذلك ولكنه لم يتنازل قيد أنملة ، فقال عنهم :

«.. وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه ، وعلموا ان الناس عندنا في الحق اسوة (سواء) فهربوا الى الاثرة فبعداً لهم وسحقاً» .

إنه كان رحمه الله شديدا في الحق حتى مع اقرب الناس اليه ، مع أفراد اسرته ، وقصته مع ابنته التي زينت بلؤلؤة من بيت المال مشهورة فقال :

من أين لها هذه ؟ لله علي أن أقطع يدها

قال ابن ' أبي رافع ، وقد كان خازنا لعلي عليه السلام على بيت المال :

«فلما رأيت جدّه في ذلك قلت : أنا والله يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي ، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطها فسكت» ، (الطبري ج٥ ، ص١٥٦) .

وكتب مرة الى أحد عماله مؤنبا ، وقد بلغه أنه اصاب شيئا من بيت المال ، وزعم أنه حقه وختم رسالته قائلا :

«.. فو الله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة ولما تركتهما حتى آخذ الحق منهما» .

رابعاً : إن نموذج الامام علي رضوان الله في الدفاع عن حقوق الانسان يتجاوز المجتمع

الاسلامي ليشمل المجتمع البشري كله ، فاذا اصبح موضوع حقوق الانسان اليوم معروفا (ويخطىء البعض عندما يربطه بالثورة الفرنسية) ويتجاهل تراث الحضارات الاخرى ، وفي مقدمتها الحضارة الاسلامية وهي حضارة تفخر بأنها انجبت نموذجا نادرا في مقاومة جميع مظاهر الحيف ، ونصرة حقوق الانسان ، هذا النموذج القدوة هو الامام علي عليه السلام) سيسجل تاريخ الانسانية المواقف الخالدة التي وقفها الامام علي كرم الله وجهه في الدفاع عن حقوق الانسان . رحمك الله يا أبا الحسن فقد عشت ما يربو عن أربعين سنة حاملا لواء العلم والسيف في مقاومة البغي والظلم ، وفي الذود عن حقوق الانسان .

إن الدارس لمواقف الامام علي عليه السلام من قضايا حقوق الانسان يلمس بسهولة بأن جل اقواله ، والقيم التي آمن بها ، وعلمها المسلمين تخدم حقوق الانسان وحريته ، وتناهض كل سلطة تحاول أن تظلم الانسان ، وتغتصب حقوقه ، وخصوصا حقوقه السياسية والاجتماعية ، وهو ما يوضح لنا صرامة المدرسة السياسية الفكرية التي أسسها في نضالها من اجل بناء مجتمع العدل السياسي والاجتماعي ، ولقد نبه المسلمين الى خطر الانحراف الذي بدأت تبرز معالمه في خلافة عثمان رحمه الله ، فقد خطب الامام في المدينة إثر بيعته قائلاً :

« . . ألا وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ولتساطن سوط القدر ، حتى يعود اسفلكم اعلاكم واعلاكم اسفلكم وليسبقن سابقون كانوا قصروا وليقصرن سباقون كانوا سبقوا» (أبن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٥ ، ط ٢ ، ج ١ ، ص ٢٧٢) .

وجاء حق الامة والمجتمع مرتبطاً بحقوق الفرد في نضال الامام من اجل حقوق الانسان ، وجاءت ممارسته للسلطة بعد بيعته إماما تطبيقا لمواقفه التي عُرف بها في هذا المجال منذ عهد الصبا ، فقد روي عن أبن عباس ان علياً عليه السلام خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة فقال :

«ألا إن كل قطعة اقطعها عثمان وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فان الحق القديم لا يبطله شيء ولو وجدته وقد تُزوج به النساء وفُرّق في البلدان لرددته الى حاله ، فان في العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه اضيق» (ابن أبي الحديد ، ج١ ، ص٢٦٩) .

إن هذا الوضع الذي بلغه انتهاك حقوق الانسان هو الذي جعل زعيما عربيا معروفا مثل عبد الله بن الزبير يقول :

«لو شايعني الترك والديلم على محاربة بني أمية لشايعتهم وانتصرت بهم» (ابن أبي الحديد ، ج ٥ ، ص ١٣١) .

وأعود الى الاستشهاد ببعض أقوال ومواقف الامام في الدفاع عن حقوق الانسان الفردية

والجماعية منها فقد رأينا مفهومه النبيل السامي للسلطة ، وهو مفهوم نادر في تاريخ نظم السلطة السياسية بالامس واليوم ، فنعله أحب الى نفسه من الخلافة أو الامارة ، وهي قمة السلطة إلاّ أن يقيم حقاً ، أو يدفع باطلاً ، فأي نظام في الدنيا بلغ هذه النظرة السامية للسلطة ؟ .

وقد كان رحمه الله ، حريصاً كل الحرص على حماية حقوق كل فرد من أفراد الرعية بصرف النظر عن لونه أو جنسه أو دينه . فقد سيّر يوماً ما جنداً لمقاومة قوى الشر فكتب الى امراء بلاده التي سيمر بها الجند كتاباً يقول فيه :

«من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من مر به الجيش من جباة الضرائب وعمال البلاد : أما بعد ، فإني سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب عليهم من كف الأذى وصرف الشذى (الشر) . وأنا أبرأ اليكم ، والى ذمتكم من معرة (أذى) الجيش إلاّ من جوعة المضطر الذي لا يجد عنها مذهباً الى شبعه فنكلوا (عاقبوا) من تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم ، والتعرض لهم فيما استثنيناه منهم» .

وكان الامام رحمه الله شديد الحرص على صيانة حقوق الجماعة والأمة ، وقصته مع ابنه الحسين عليه السلام لخير برهان على ذلك ، فقد روي انه نزل بابنه الحسين ضيف ، فاشترى الحسين خبزاً واحتاج لادام ، فطلب من قنبر غلام أبيه ان يفتح له زقاً من زقاق عسل جاءتهم هدية من اليمن فأخذ منها ما أطعم به الضيف ، فلما جاء أمير المؤمنين ، وطلب الزقاق ليفحصها قال :

«يا قنبر أظن أنه حدث بهذا الزق حدث !» .

فأخبره ، فغضب وسأل الحسين :

«ما حملك على أن أخذت منه قبل القسمة» .

قال الحسين : «إن لنا فيه حقاً فاذا أعطيناه رددناه» . قال الامام :

«وان كان لك حقٌ فليس لك ان تنتفع به قبل ان ينتفع المسلمون بحقوقهم» .

ثم دفع الى قنبر درهماً وقال :

اشتر به خير عسل تقدر عليه ليقسم مع ما في الزقاق (عبد الرحمن الشرقاوي ، علي امام المتقين ، القاهرة ١٩٨٥ ، ج ٢ ، ص ٣٧١) .

وأود الملاحظة في نهاية هذه الكلمة أن الامام رضوان الله عليه قد كان واعياً بأن المدافعين عن حقوق الانسان في عصره قد اصبحوا قلة فقد قال :

«اعلموا رحمكم الله أنّا في زمان القائل فيه بالحق قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللازم للحق ذليل . . .» .